رحيل

تجلى الصبح بنوره على القرية الصغيرة.. وجاء الخبر مسرعا لبيت الست رحيل.. يدق الصبي الباب الخشبي ذو الشقوق الذي ينفذ إليها الظلام كما ينفذ النور، يعج البيت برائحة العطارة التي تداوي بها الناس، هي تمتهن العطارة بجانب العديد والندب، فهي ندابة ولا تحب أن تخبر الغرباء بصنعتها التي ورثتها عن أمها.. رغم أن مظهرها طالما ارتبط بالكآبة.. دائما ما ترتدي جلبابا أسود باهتا وتضع على رأسها وشاحا أسود باهت أيضا.. بيتها مكون من طابقين بينهما درج خشبي متهالك.. تحتفظ في الطابق الأعلى بأعشاب عطارتها وفي الطابق الأسفل غرفة نومها وغرفة أخرى تضع فيها الأكفان البيضاء التي تبيعها.. جاء الصبي صباح الجمعة: يا ست رحيل مات الشيخ زكريا، استعدي..

ردت: حاضر اغرب عن وجهي الآن.. خرجت من دارها بعد برهة تمشي في شوارع القرية الضيقة.. طريقها طويل إلى بيت المتوفي.. الجميع ينظر إليها ويري من بين ملامحها وثيابها كآبة تلازمها.. تبعث على التشاؤم كونها ندابة.. نظراتهم إليها تحمل خوفا وفزعا من تلك العيون التي لا تتوقف عن البكاء المصطنع في الجنازات وهذه الحنجرة التي تصدح بكلمات الرثاء وتستجلب الدموع من أعين النساء فيتبعنها جميعا في النوح وشق الثياب وقرع الصدور.. وصلت الست رحيل لبيت المتوفي وبدأت تستحضر كل مشاعر الحزن والأسى وتطلب من مقلتيها الدمع.. مصدر رزقها أن تبكي على موت أحد لا تشعر بفقدانه، وتعدد محاسنه وهي ما رأت محاسنه يوما، وأن ترثيه وهو لا يهمها في شئ.. تفتعل الحزن لتساعد أهل الميت أن يحزنوا بعمق.. وجود الندابة يثري حفل الحزن على الفقيد..

–يا عمود بيتي والعمود هدوه يا هل ترى في بيت مين ينصبوه .. هكذا كانت تقول...

دفن الشيخ زكريا ..انتهى العديد.. قبضت أجرتها ومضت في طريقها تعد النقود وتلوم على الناس الذين ينتقصون من أجرتها...

وصلت دارها..

حضر الليل وخيم سواده على المدينة والجميع أضاء القناديل في البيوت.. الأزقة مظلمة وبعض القلوب أيضا مظلمة.. تناولت الست رحيل كسرة من الخبز وقطعة من الجبن القديم ثم غفت على سريرها الجريدي المغطي بقماشة بيضاء بالية.. بعد قليل دق الباب دقات بطيئة غير متعجلة.. فركت عينيها ومشت بخطوات متثاقلة مرهقة تجاه الباب.. فتحته، رأت فيما رأت رجلا ضخما عظيم الطول، ذو هيبة ورهبة، قال لها هيا يا رحيل لديك رحلة طويلة معي.. خرجت معه دون أن تسأل إلى أين ومن أنت ولماذا تأخذني معك.. سارا كلاهما في الطريق على مهل.. نظرت الست رحيل حولها وتعجبت من هول ما رأت سيدات القرية خرجن من بيوتهن وجلسن على الأبواب يرددن رثائهم على الست رحيل، كن يبكين ويندبن على مفارقتها.. قلن بألحان شجية: يا رحيل أترحلين ومن بعدك يرثي أهلينا إذا فارقونا؟ سمعت رثائهم على طول طريقها مع ذاك الرجل وهي لا تفهم لماذا يفعلن ذلك نساء القرية.. سألت الرجل إلى أين نحن ذاهبان؟ أجابها لقد طلبك الملك.. سألته أين؟ قال: هنا وأشار على مرمى بصرهم إلى المقابر التي خيم عليها السكون

والهدوء الذي يكاد ينطق بالحقيقة، أن الإنسان كائنٌ ما بين شهيق ثم زفير لا يتبعه شهيق، رحلته في الحياة وإن طالت قصيرة وسيأتي متعجلا للقاء الملك، ارتجفت رحيل، أدركت أن تلك ساعتها، شعرت أنها سلبت من أيامها أو أيامها سلبت منها، لأول مرة تجرب معنى أن يداهمها الوقت.. لأول مرة لا ترثي أحد بل تُرثَي ، بل كانت تندب من ماتوا بعد موتهم, فهم لا يسمعون رثائهم..أما هي فقد سمعت بأذنيها صوت الندب الكئيب على عمرها الذي انتهي.. والذي تسلمه هي بيديها.. أرادت أن تهرب، انعقدت قدماها، أرادت أن تتكلم انعقد لسانها.. استسلمت باكية دموعا حارة ملأت وجنتيها.. ازدحم عقلها بالآف الأفكار.. فكرت أنها تعاملت مع الموت تقريبا في كل أيام حياتها ولم تكن تعلم يوما أنه ثقيل.. شديد.. موحش.. هو هكذا عندما تشهده وتمشي إليه بقدميك ويصطحبك ملك الموت من بيتك إلى قبرك .. ورثائك يسقط على مسامعك مؤلما.. الله يرحم الناس حين يسلمون أرواحهم أولا ثم يحملون إلى قبورهم، أما أنا فما رحمني، لقد سرت أولا إلي قبري وشاهدت كل أوجاع مماتي بأم عيني ولم أسلم روحي بعد..كم أنا معذبة.. متى أنتهي من ذلك.. إلتفتت إلى الرجل لتسأله متى سينتهي عذابها وتسلم روحها.. لم تجده.. اختفى.. كأن لم يكن.. وضعت جسدها المنهك على الأرض واستسلمت للنعاس الذي أثقل جفنيها.. راحت تغط في سبات عميق.. فجأة سمعت نداء .. يا أمي يا أمي استيقظي.. جاءك الرزق.. أحدهم مات في الحارة الخلفية.. انتفضت من سريرها وجعلت ترتجف وتتحسس وجهها وساقيها.. هي لم تصدق أنها في بيتها.. تحسست فراشها وتأكدت أنها هناك بالفعل.. تأملت السماء في دهشة بينما تسترجع ما جرى لها ذلك اليوم الغريب وهي تقول ما هذه الهواجس، أنا الندابة الوحيدة لهذه القرية علي أن أندب على رأس كل ميت هنا.. هذا حق الميت ورزقي.. لماذا يموتون في صمت، ويتزوجون في ضجيج؟ فلنحدث ضجيجا في الميتم كما في الأعراس.. رحيل ستظل رحيل بثوبها الأسود وصوتها الحزين الذي خلق للرثاء والندب.. وكلماتها التي لا تعرف سوى الإنطلاق فى الجنازات وسيرة الفراق..

انتهى..